كتاب :

«اطول الحروب»
للكاتب الاسرائيلي جاكوبو تيمرمان

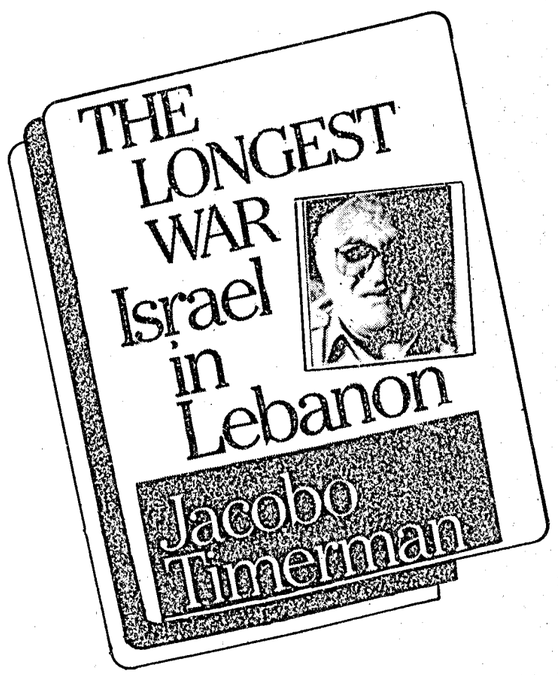

ما الذي حوّلنا الى مجرمين بهذا القدر ؟!

الحرب الأخيرة التي شنتها الدولة الصهيونية على لبنان والتي استهدفت تدمير البنى الأساسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لم تضع اوزارها بعد لا على الصعيد العسكري ولا السياسي . وقد اثارت هذه الحرب ردود فعل عنيفة ، منها تلك الردود التي أثيرت داخل اسرائيل والتي أخذت تعبيرات مختلفة ، لم تعهدها الحكومات الاسرائيلية في حروبها السابقة والتي كانت من وجهة نظر الأغلبية اليهودية «حروب مبررة» ! فهي إنْ لم تكن حروب دفاعية فهي على الأقل ضربات وقائية ! الحرب الأخيرة في لبنان لم تكن حربا دفاعية او حتى وقائية ... وهذا ما عبر عنه آلاف الاسرائيليون عبر مظاهراتهم واحتجاجاتهم والتي مست بشكل مباشر المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ذاتها ، عبر الحركات التي شكلها الضباط والجنود العائدون من المستنقع اللبناني «الجنود ضد الصمت» ... «هناك حد» .... الخ .

ولا زلنا نذكر رسالة الكولونيل (دبلي جيفا) التي طلب اعفاءه من قيادة وحدته لأنه «لن يكون هو الذي يقودهم إما الى الموت ... او الى الجريمة» .

تلك الحرب لم تزل تترك بصماتها داخل الكيان الصهيوني وتأخذ اشكالا جديدة ، ففي الآونة الأخيرة ظهر كتاب «أطول الحروب» للصحفي والكاتب الأسرائيلي الارجنتيني الأصل جاكوبو تيمرمان ، والذي أثار ردود فعل عنيفة داخل «اسرائيل» ، لأنه كشف بشكل واضح زيف الادعاءات الصهيونية لجهة الأهداف الأمنية للغزو الاسرائيلي للبنان ، والاسلوب النازي الذي اتبعه بيغن وشارون في حملات الابادة ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني.

«مؤلف هذا الكتاب جاكوبو تيمرمان من أصل اوكراني ، هاجر والده الى الارجنتين ، وعاش في ظل الدكتاتورية العسكرية هناك ، وسجن في سجونها على اثر اعتقاله في ابريل ١٩٧٧ ، بعيد المعارضة التي قادها من خلال رئاسته لتحرير صحيفة «الرأي» الليبرالية ... وبعدها تم نفيه من الارجنتين وتوجه الى اسرائيل منذ ثلاث سنوات .. وقد ألف كتاباً عن تجربة اعتقاله تحت اسم «سجين بلا اسم وزنزانة بلا رقم» .

تيمرمان الذي اختار اسرائيل حداه الأمل في ديمقراطية وهمية فيها .. اصابته صدمة الدكتاتورية التي ما اختلفت عن ديكتاتوريات امريكا اللاتينية . واسرائيل على حد تعبيره اصبحت جمهورية برلمانية ولكنها ليست ديمقراطية .. وان حكومة بيغن تشكل خطراً عليها .

يبدأ جاكوبو تيمرمان بإهداء كتابه للميجور جيورا هارنيك .. «الذي لم اعرفه مطلقاً .... ولكنني أعرف أنه لقي مصرعه في قتال متلاحم في قلعة الشقيف ... وأعرف أنه كان عضواً نشطاً في حركة السلام الآن ... وانه كان ضد الحرب التي قتل فيها وقتل ، واعرف انه كان يمكن أن يعيش ويموت من أجل افكاره ، لأنه كان مضطراً لأن يقتل ويموت من اجل الأفكار المتسلطة لحكام غير أكفاء وعسكريين يملأهم الغرور» .

وعن بداية الحرب يقول تيمرمان :

«شن الجنرال شارون هجومه ، وبدأ حربه في الحادية عشرة من صباح الأحد ٦ يونيو ١٩٨٢ ... لكن بالنسبة لي ، كانت الحرب قد بدأت قبل ذلك بتسعة عشر ساعة ، عندما استدعي ابني الاكبر دانييل للخدمة العسكرية في لبنان .. وبدأت الحرب فعلا عندما أطلق شارون طوابيره المدرعة الثلاثة .. والاسرائيليون لا يشعرون بأنهم في حالة حرب عندما تقصف طائراتهم القواعد العربية ... فالطائرات تعود دائماً الى قواعدها سالمة ... أما عندما يشترك المشاة ، ويتم استدعاء الاحتياط فإن الامر يكون مختلفاً ... كذلك ، كان من السهل دائماً في البداية التفكير في المسألة على انها مجرد عملية !!... ولكن بعد تولي شارون وزارة الدفاع في اغسطس ١٩٨١ ، اصبح من الصعب الاقتناع بأنه سيرضى بأي شيء أقل من الحرب .

وكانت شخصية شارون تثيراحساسا بعدم الارتياح ... وما زلت اتذكره في مركز قيادته في بير السبع عام ١٩٦٩ وهو يرد على كل اسئلتي السياسية بإجابات عسكرية ...

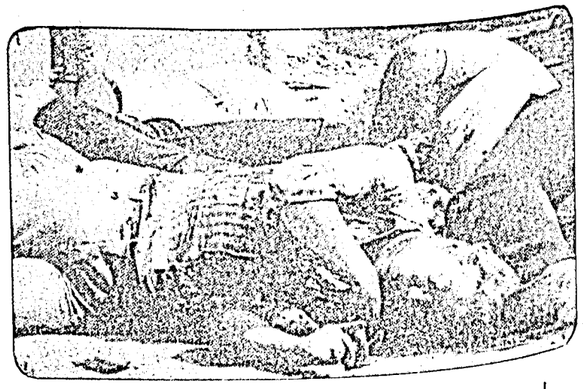

وربما بدأت الحرب بالنسبة لي في هذا اللقاء في بئر السبع» .

ويضيف جاكوبو تيمرمان ....

«لم تكن هناك متاعب في منطقة الحدود الشمالية وكانت قرى الجليل تعيش في هدوء ، ومع ذلك كانت الحرب التي اطلقوا عليها اسم ـ السلام للجليل ـ!..... ولم تكن بداية الحرب صعبة بوجه خاص ، ففي اليوم الأول خدرتنا الأنباء ... وفي اليوم الثاني خدرتنا الانتصارات ... وفي اليوم الثالث ، كنا نقول أن العملية يمكن أن تستغرق بضع ساعات أكثر .... وفي اليوم الرابع كنا نحاول أن نستخلص من الانباء ما الذي يحدث فعلاً ... وفي هذا اليوم بدأ الاحساس بالذنب» .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك الأسلوب الديماغوجي الذي ينتهجه بيغن في محاولة التخفيف من آثار التدمير والقتل بالتذكير بما فعله هتلر بالشعب اليهودي ! ثم يعرض أحاديث بعض الجنود الاسرائيليين العائدين من جبهات القتال ، حيث عبر أحد هؤلاء عبر شاشة التلفزيون بشكل ساخر عن هذه الحرب «أعتقد اننا سنصل الى أنقرة ، فهناك معبد يهودي تعرض للتخريب ... وقد نصل الى موسكو ، فهناك الكثير من صواريخ الكاتيوشا» !.

يقول جاكوبو تيمرمان حول الدمار الذي شاهده في صور :

«انقاض صور ، لا بد وأن تحتها حياة كاملة ... اجهزة بيانو ... وصور فوتوغرافية ... وكتباً مدرسية ، وستائر مطرزة ... وساعات ... حياة يومية كاملة . إن كل التفسيرات التي قيلت عن الأسلحة المخزونة وعن معسكرات التدريب وعن الارهابيين الذين يهددوننا ... لا يمكن أن تبرر تدمير هذه المدينة» .

ثم يتساءل الكاتب .....

«هل سيصبح لبنان محمية اسرائيلية ؟ وهل سيجدي ذلك ؟ ..... فحتى اذا انسحبت منظمة التحرير ، سيظل في لبنان نصف مليون فلسطيني .... وتذكرت أنه رغم استمرار احتلالنا للضفة الغربية لأكثر من ١٥ عاماً ، لا يستطيع الاسرائيليون دخول هذه الأراضي الا في دوريات مسلحة!»

ومع تقادم الحرب يبدأ الرأي العام الاسرائيلي بالتحرك ويتظاهر مائة ألف من حركة السلام الآن وتطفو على السطح اسئلة كثيرة حول معنى هذه الحرب .... حيث معها لم يعد ممكناً إخفاء الانقسام الذي حدث في الرأي العام الاسرائيلي ويقول الكاتب هنا ....

«إن هذه العملية التي دخلت اسبوعها الخامس ، اصبحت حرباً ما كان يجب ان تستغرق أكثر من ٤٨ أو ٧٢ ساعة . لكنها الآن مستمرة لأكثر من ٩٦٠ ساعة ، وما كان يجب أن يسقط فيها اكثر من ٣٠ قتيلاً اسرائيلياً ، لكن تم حتى الآن دفن ما يقرب من ٣٠٠ ضابط وجندي واسرائيلي وهو ما يعادل ٢١,٠٠٠ امريكي اذا ما وضعنا في الاعتبار نسبة الفرق في عدد السكان» .

ويستطرد تيمرمان «خلال اقل من اسبوع اعلن رئيس الوزراء أن الاحداث هي التي دفعت الحرب وراء أهدافها الأولى .... واعلن وزير الدفاع انه كان يعد لغزو لبنان لأكثر من عام ... وأعلن القائد العام للجيش انه كان يخطط للحرب ، بما في ذلك الاستيلاء على بيروت ، طوال ثمانية شهور ـ فمن نصدق ؟.... إن كلاً منهم يدير حربه الخاصة!» .

في الجزء التالي يبدأ الكاتب برصد أشكال الاحتجاج داخل صفوف الجيش الاسرائيلي ، ومن ثم تشكيل حركات مناهضة للحرب . ويصل الكاتب الى نتيجة هامة مفادها كما يقول تيمرمان ...

«التدهور في حياتنا ، والعنف بين الأحزاب السياسية ، وفساد الاقتصاد من خلال التضخم ونزعة المجتمع الاستهلاكي ، والاستخدام السياسي للجيش ، والمواجهة المصطنعة بين اليهود الشرقيين والغربيين ... كلها لن تحل ما لم ندرك الطبيعة الحقيقية للمشكلة الفلسطينية ، فلا شيء يمكن ان يحل محل حاجة شعب لأن ينظم نفسه في دولة على الأرض التي يعيش عليها وتنتمي اليه» .

ويضيف تيمرمان حول تسارع الحرب التي لم تنته ....

«في اليوم الخامس والأربعين من الحرب استطعت أن أتذكر الخطة الأصلية للجنرال شارون : ابعاد الفدائيين الفلسطينيين مسافة ٤٠ كم عن الحدود الشمالية في عملية لن تزيد عن ثلاثة أيام ، بأي حال من الأحوال ، وقالت الحكومة وقتها إن هذا سيعني ـ السلام للجليل ـ!

واليوم في أواخر الأسبوع السابع من الحرب ، ما زال الفدائيون الفلسطينيون يعملون في الأراضي اللبنانية التي يحتلها الجيش الاسرائيلي (....) وليست هناك اهمية لمناقشة ما اذا كان الفلسطينيون الذين يقاتلون الغزاة الاسرائيليين ارهابيين ام لا ... الشيء الواضح ان القمع العسكري لعشرة آلاف فدائي ظهروا وسط اربعة ملايين فلسطيني لن يتيح لنا على الأكثر سوى بضع سنوات ليظهر بعدها جيل جديد من الفدائيين المستعدين لاستئناف الكفاح المسلح . والتاريخ يقول لنا إن الموجة الجديدة من المقاتلين تكون اكثر جذرية ، وأفضل تدريباً ... وأكثر بأساً !.

ويتصاعد في داخلنا احساس باليأس... فإن كل قوتنا العسكرية لاتستطيع أن تمنع أي شابين فلسطينيين من صنع قنبلة تنفجر في الخليل ... او من قتل اسرائيلي في بيت لحم ... او من نصب كمين لدورية اسرائيلية في وسط لبنان ...

لقد قيل لنا في البداية أنه سيتم تدمير منظمة التحرير الفلسطينية وسيختفي الارهاب ، وسيذعن سكان الضفة الغربية لسلطتنا (.....) فإذا تبقى لنا ؟

في بداية الاسبوع الثامن من الحرب لم يتبق من ذلك شيء سوى نحن الاسرائيليون .... وهم الفلسطينيون .

ويجب ان نقتنع بأن نقبل الفلسطينيين هؤلاء اليهود الجدد في الشرق الأوسط ... هؤلاء المواطنون الذين يعيشون في أرض ليست بدولة ... هؤلاء الذين يرفضون التخلي عن ارضهم ...» .

يشير الكاتب الى النوايا التوسعية الاسرائيلية فيعرض الى أن الجنرال جادنافون الحاخام الأكبر للجيش الاسرائيلي كان يوزع خريطة يظهر فيها لبنان على أنه ارض كانت تحتلها قبيلة يهودية في الأزمان الغابرة ... وفي الخريطة ، تحمل بيروت اسماً عبرياً هو «بعيروت» .

والى جانب ذلك فإن «جاكوبو تيمرمان» لا يساوره الشك في أن الجيش الاسرائيلي هو الذي رتب مذابح صبرا وشاتيلا ... ويتساءل الكاتب بما يشبه عقدة الذنب التي تحدث عنها خلال السياق :

ما الذي حولنا الى مجرمين بهذا القدر !؟

سؤال لم يعد يحتاج الى كثير العناء للأجابة عليه .

اعداد : عماد عبد الوهاب